



(٣٠٣) - (٣٢٤)

العدد الثاني
والأربعون

الوعي بالذات اساس التحول من الهامش الى المركز

م.م منى رزاق رستم

جامعة واسط / كلية الآداب / قسم اللغة العربية

HECTORIKEJJ5825@GMAIL.COM

المستخلص:

تهدف الدراسة إلى تحليل تحولات الذات النسوية من الهامش إلى المركز في رواية "أنا أحياء" لـ ليلي بعلبكي، من خلال مقارنة نقدية تجمع بين التحليل السردى والقراءة الثقافية. وتتطرق الدراسة من فرضية مفادها أن الرواية لا تقدم تجربة فردية معزولة، بل تكشف عن مسار تدريجي لإعادة بناء الذات النسوية داخل بنية اجتماعية وثقافية تُعيد إنتاج التهميش بآليات رمزية غير مباشرة، اعتمدت الدراسة منهجاً تحليلياً تأويلياً، ارتكز على تفكيك مفهومي الهامش والمركز في الخطاب السردى، ثم تتبّع تماثلتهما داخل النص الروائى، وقد أظهرت الدراسة أن التحول في الرواية لا يتحقق عبر صدام مباشر مع المجتمع، إنّما عبر مسار داخلي يتأسس على الوعي وإعادة تعريف الدور الاجتماعى، كما بينت أن اعتماد ضمير المتكلم يمنح البطلة سلطة التأويل، ويجعل من السرد ذاته أداة لتمركز الذات، وبذلك تتجاوز الرواية حدود الحكاية الفردية لتقدّم نموذجاً لتحول رمزي يعكس تحولات أوسع في تمثيل المرأة داخل الرواية العربية المعاصرة.

للعلوم التربوية والنفسية وطرائق التدريس للعلوم الأساسية

الكلمات المفتاحية: الهامش، المركز، الذات النسوية، السرد، الوعي، العمل، الصوت الروائى.

THE FUNDAMENTAL SHIFT FROM THE MARGIN TO THE CENTER

Assistant teacher Muna razzaq Rustam

University of Wasit / college of Arts, Department of Arabic Language

Hectorikejj5825@gmail.com



Abstract

This study aims to analyze the transformations of the feminist self from the margins to the center in Layla Baalbaki's novel "I Live," through a critical approach that combines narrative analysis and cultural reading. The study starts from the premise that the novel does not present an isolated individual experience, but rather reveals a gradual path of reconstructing the feminist self within a social and cultural structure that reproduces marginalization through indirect symbolic mechanisms. The study adopted an analytical-interpretive approach, based on deconstructing the concepts of margin and center in the narrative discourse, and then tracing their representations within the novelistic text. The study showed that the transformation in the novel is not achieved through a direct clash with society, but rather through an internal path based on awareness and redefining the social role. It also showed that the adoption of the first-person pronoun gives the protagonist the power of interpretation and makes the narrative itself a tool for centering the self. Thus, the novel transcends the limits of the individual story, presenting a model of symbolic transformation that reflects transformations that expand the representation of women within the contemporary Arabic novel

Keywords: Margin, Center, Feminist Self, Narrative, Consciousness, Action, Narrative Voice.

المقدمة

مجلة العلوم الأساسية

للعلوم التربوية والنفسية وطرائق التدريس للعلوم الأساسية

الهامش في الأدب الحديث والمعاصر ظاهرة حيوية تمكن الباحثين من فهم التجارب الإنسانية من زاوية تتجاوز الإطار الاجتماعي التقليدي، وتسليط الضوء على الأصوات التي غالبًا ما تُهمش أو تُجاهل في النصوص الأدبية والثقافية، وبذلك تحتل رواية "أنا أحياء" للروائية ليلي بعلبكي مكانة متميزة، إذ تجعل من الهامش محورًا سرديًا يتجلى في أساس الشخصيات والأماكن والزمن والأسلوب، ليكشف عن صراعات الفرد المهمش على المستويين النفسي والاجتماعي، ويطرح تساؤلات عميقة حول الهوية، الحرية، والمعنى في الحياة، امتازت الرواية بقدرتها على تحويل الهامش من مجرد غياب أو هامشية اجتماعية إلى فضاء إنتاجي مركزي للتجربة الإنسانية، من خلال الشخصيات التي تعيش عزلة أو صراعات وجودية، فتجعل القارئ يعيش تجربة التهميش ويشارك في تأمل أبعادها



النفسية والاجتماعية، وقد تستند أهمية دراسة هذا الهامش إلى أنه يسمح بفهم كيف تعيد الرواية رسم الحدود التقليدية للمجتمع وتطرح رؤية نقدية للقيم والمعايير الاجتماعية، لتظهر قدرة الأدب على فتح آفاق جديدة لتقدير التجربة الإنسانية بما تتضمنه من تعقيدات وصراعات، سعت الدراسة إلى استكشاف مركزية الهامش في رواية "أنا أحياء"، من خلال دراسة الشخصيات المهمشة وتحليل صراعاتها، وملاحظة دور المكان والزمن في اظهار الهامش كفضاء محوري، فضلا عن إلى تحليل الأسلوب واللغة هي ادوات فنية تعزز حضور الهامش في التجربة السردية وتتيح للقارئ التعايش معها، ويتضمن البحث طرح سؤال رئيس حول كيفية جعل الرواية الهامش قلب التجربة الإنسانية، مع فرضيات تفترض أن الرواية تمنح الشخصيات المهمشة صوتاً متكاملًا، وأن المكان والزمن يعكسان تجارب الهامش ويؤكدان حضورها النفسي والاجتماعي، وأن الأسلوب واللغة يعززان هذا التركيز، بما يجعل القارئ قادرًا على فهم الواقع من منظور هامشي مختلف، تكتسب هذه الدراسة أهميتها من كونها تساعد في فهم الرواية العربية المعاصرة كمجال يساعد بإعادة النظر في القيم الاجتماعية والثقافية، وفي تجربة الفرد خارج المركز الاجتماعي التقليدي، مما يجعل من الهامش ليس مجرد هامش، إنما قلب التجربة الروائية نفسها وفضاءً للتأمل في الوجود الإنساني بكل أبعاده، حيث تتضح صراعات الإنسان، آماله، وأسئلته الكبرى عن معنى الحياة في فضاء أدبي يعكس عمق التجربة الإنسانية المعاصرة، تمحورت الدراسة حول تحليل مسار انتقال الذات النسوية من الهامش إلى المركز في رواية "أنا أحياء" لـ ليلي بعلبكي، من خلال مقارنة تجمع بين التحليل السردى والقراءة الثقافية، وجاءت من ثلاثة مباحث وخاتمة.



يُعدّ مفهوم الهامش من أكثر المفاهيم النقدية تعقيداً في الدراسات الأدبية الحديثة، نتيجة لتداخله مع مجالات معرفية متعددة تشمل علم الاجتماع، والفلسفة، والدراسات الثقافية، والتحليل النفسي، والنقد السردي، ولم يعد الهامش يُفهم في إطار دلالاته التقليدية بوصفه ما يقع خارج المركز أو على أطرافه، إنّما أصبح مفهوماً إجرائياً يساعد بفهم كيفية تشكّل الخطاب الأدبي، وكيفية توزيع الأصوات داخله، وآليات إنتاج المعنى وتمثيل السلطة، من الناحية المفهومية، لا يمكن الحديث عن الهامش بمعزل عن المركز، إذ تقوم العلاقة بينهما على جدلية دائمة، حيث يُعرّف أحدهما من خلال الآخر، فقد بيّنت الدراسات النقدية أن المركز لا يكتسب مشروعيته إلا من خلال إقصاء ما لا ينسجم مع قيمه ومعاييره، وهو ما يجعل الهامش نتيجة بنيوية لا عرضية (عصفور، ١٩٩٩، ٨٨)، حيث يرى ميشيل فوكو أن كل خطاب ينتج مناطق صمت بقدر ما ينتج مناطق قول، وأن ما يتم إسكاته أو تهميشه هو جزء من استراتيجية السلطة في تنظيم المعرفة (فوكو، ١٩٩٤، ٣٩٨)، وبذلك، فإن الهامش في الأدب أثراً مباشراً لسلطة الخطاب الاجتماعي والثقافي، وفي الإطار السوسولوجي، قدّم بيير بورديو تصوراً بالغ الأهمية للهامش، حيث ربطه بمفهوم الحقول الثقافية، حيث تتوزع المواقع الاجتماعية وفق امتلاك أشكال مختلفة من الرأسمال، سواء كان ثقافياً أو رمزياً أو اقتصادياً، ومن لا يمتلك هذه الأدوات يُدفع إلى مواقع هامشية، ويُعاد إنتاج تهميشه عبر مؤسسات التنشئة واللغة والذوق العام (بورديو، ٢٠١٠، ٥٤٣)، ويُتيح هذا المنظور قراءة النص الأدبي بوصفه فضاءً يعكس هذه الصراعات، حيث تتحول الشخصيات المهمشة إلى تمثيلات رمزية لمواقع اجتماعية مقصاه، أما من زاوية الهوية، فقد أسهم إرفنغ غوفمان في توضيح مفهوم الهامش من خلال دراسته للوصم الاجتماعي، حيث بين أن بعض الأفراد يُختزلون في سمات بعينها تجعلهم موضع إقصاء دائم (Goffman، ١٩٦٣، ٥٤٣)، وينعكس هذا الوصم في الأدب عبر شخصيات تعيش صراعاً مستمراً بين صورتها الذاتية وصورة الآخر عنها، مما يجعل الهامش حالة نفسية وجودية قبل أن يكون وضعاً اجتماعياً، وفي النقد الثقافي العربي، يشير عبد الله الغدامي إلى أن الهامش هو الموقع الذي تُقصى إليه الخطابات غير المنسجمة مع النسق الثقافي المهيمن، ويؤكد أن الثقافة لا تعمل فقط على إنتاج المعنى، وإنّما على ضبطه وتوجيهه، وهو ما يجعل الهامش كاشفاً للأنساق المضمرّة التي تتحكم في الذوق والقيم (الغدامي، ٢٠٠٥، ٨٧) ومن هذا المنطلق، تصبح دراسة الهامش ضرورة لفهم ما تخفيه الثقافة بقدر ما تُظهره، ومن منظور السرديات، قدّم ميخائيل باختين مفهوم "تعدد الأصوات" الذي منح الهامش بعداً بنائياً داخل النص الروائي. فالرواية، بحسب باختين، لا تقوم على صوت



أحادي، إنّما على حوارية تتجاوز فيها أصواتاً متعددة، كثير منها ينتمي إلى مواقع اجتماعية أو فكرية هامشية (باختين ، ١٩٩٧ ، ٢٣٤) وبذلك، يتحول الهامش إلى عنصر فاعل في تشكيل البنية السردية، لا مجرد موضوع خارجي، وفي الفلسفة التفكيكية، شكّل مفهوم الهامش أحد المرتكزات الأساسية لأطروحات جاك دريدا، الذي فكك ثنائية المركز/الهامش، مبيّناً أن الفكر الغربي قام على افتراض مركز ثابت للمعنى، في حين أن ما تم اعتباره هامشياً هو في الواقع شرط لإنتاج الدلالة، فالهامش، وفق هذا التصور، ليس خارج النص، إنّما في صميم بنيته، وهو ما يجعل القراءة التفكيكية بحثاً في ما أقصى بقدر ما هو ظاهر (داريدا، ١٩٩٨، ٧٦٥)، أما في الدراسات ما بعد الكولونيالية، فقد اكتسب الهامش بعداً تاريخياً وسياسياً واضحاً، إذ يرى إدوارد سعيد أن الخطاب الاستعماري أنتج تمثيلاً ثنائياً للعالم، مركزاً غريباً في مقابل هامش شرقي، صُوّر بوصفه مختلفاً أو أدنى، وتأتي الكتابة الأدبية بوصفها فعلاً مضاداً يعيد للذات المهمشة حقها في تمثيل نفسها وسرد تجربتها (سعيد، ١٩٩٧، ٨٧)، ويذهب هومي بابا أبعد من ذلك حين يرى أن الهامش ليس موقعاً ثابتاً، إنّما فضاءً هجيناً تُعاد فيه صياغة الهوية بعيداً عن ثنائية المركز والهامش التقليدية (بابا، ٢٠١٣، ٦٥)، أما المستوى الوجودي، يتقاطع مفهوم الهامش مع أطروحات الاغتراب والقلق، حيث أشار إريك فروم إلى أن الإنسان الحديث يعيش حالة من الانفصال عن ذاته وعن العالم، تجعله يشعر بالهامشية حتى داخل المجتمعات التي ينتمي إليها (فروم، ٢٠٠٦، ٩٧) وقد انعكس هذا التصور في الأدب الحديث من خلال شخصيات تعيش عزلة داخلية، وتبحث عن معنى وجودها في عالم فقد انسجامه، وانطلاقاً من هذه المقاربات المتعددة، ترى الباحثة أن الهامش في الأدب ليس مجرد فئة اجتماعية أو حالة نفسية، إنّما بنية معرفية وسردية تتقاطع فيها أنساق السلطة، والخطاب، والهوية، واللغة، وهو ما يجعل دراسته مدخلاً أساسياً لفهم الرواية الحديثة، التي لم تعد تُعنى بنكريس المركز، بقدر ما تسعى إلى تفكيكه، وإعادة الاعتبار لما تم إقصاؤه أو تهميشه، ومن هنا، يصبح الهامش فضاءً لإنتاج المعنى، ومجالاً لتجديد الرؤية الأدبية والإنسانية.

ثانياً: أهمية دراسة الهامش في الأدب

تُعَدّ دراسة الهامش من أهم المداخل النقدية لفهم الأدب الحديث والمعاصر، لما تتيحه من إمكانية الكشف عن البنى العميقة للصراع الإنساني داخل المجتمع، فالهامش، في التصورات النقدية الحديثة،



لا يُختزل في كونه موقعاً اجتماعياً ثانوياً، إنَّما يُنظر إليه بوصفه فضاءً دلاليًا ومعرفياً يكشف ما يعجز المركز عن قوله أو الاعتراف به، حيث أشار بيير بورديو إلى أن البنى الاجتماعية لا تُنتج فقط مراكز سلطة، إنَّما تُنتج في المقابل أشكالاً من الإقصاء الرمزي، تجعل بعض الذوات تعيش حالة توتر دائم مع القيم السائدة، حتى وإن لم تكن مقصاة مادياً (بورديو، ٢٠٠٩، ٢٣٤)، ومن هذا المنطلق، تكتسب دراسة الهامش في الأدب أهمية خاصة، لأنها تتيح تحليل التجارب الإنسانية التي تتشكل في مناطق التوتر بين الفرد والمجتمع، وبين الرغبة والواجب، وبين الذات ومعايير الجماعة، فالأدب، بخلاف الخطابات الرسمية، لا يكتفي بتصنيف البنى الاجتماعية، إنَّما ينفذ إلى أثرها النفسي والوجودي في الإنسان، وبذلك يصبح الهامش مجالاً لتمثيل القلق، والاعتزاز، والانكسار الداخلي، وهي حالات عدّها إريك فروم من أبرز سمات الإنسان الحديث الذي يعيش داخل المجتمع، لكنه يشعر بالانفصال عنه (فروم، ٢٠٠٦، ١١٨) وتكشف النصوص الأدبية التي تتشغل بالهامش عن الصراعات الداخلية التي يعانها الفرد حين يجد نفسه عاجزاً عن التماهي الكامل مع القيم الاجتماعية السائدة، فالهامش، بهذا المعنى، ليس خارج المجتمع، إنَّما في قلبه، ويعبّر عن فشل المركز في استيعاب التعدد والاختلاف، حيث ذهب ميشيل فوكو إلى أن المجتمعات الحديثة لا تُقضي المختلفين دائماً بالقوة، إنَّما عبر أنظمة خطابية تحدد ما هو "طبيعي" وما هو "منحرف"، وبذلك تُنتج هامشاً ثقافياً ورمزياً (فوكو، ١٩٩٠، ٧٥)، ويُعد الأدب أحد أهم المجالات التي تكشف هذه الآليات وتفككها، كما تسمح دراسة الهامش بإعادة النظر في القيم الاجتماعية التي يُقدّمها المركز بوصفها مسلمات غير قابلة للنقاش، مثل مفاهيم النجاح، والاستقرار، والدور الاجتماعي، ولا سيما ما يتعلق بأدوار المرأة، فالهامش الأدبي يكشف هشاشة هذه القيم، ويُظهر أنها ليست كونية أو ثابتة، إنَّما نتاج تاريخي وثقافي قابل للمساءلة، حيث يبين عبد الله الغدامي أن السرد الحديث، ولا سيما السرد النسوي، ساعد في زعزعة المركز الثقافي الذكوري، عبر نقل الاهتمام من الخطاب الجمعي إلى التجربة الفردية المهمّشة رمزياً (الغدامي، ١٩٩٦، ٢٢)، وتظهر أهمية دراسة الهامش كذلك في قدرتها على كشف التحولات العميقة في وعي الإنسان المعاصر، حيث لم يعد الصراع الأساسي صراعاً مع الفقر أو القهر المباشر فقط، بل صراعاً مع فقدان المعنى، ومع الشعور باللاجدوى داخل أنظمة اجتماعية تبدو مستقرة من الخارج، فقد أشار لوسيان غولدمان إلى أن الأدب يعكس "بنية شعورية" لجماعة أو فئة، وأن الشخصيات الهامشية غالباً ما تعبّر عن أزمة هذه البنية في لحظة تاريخية معينة (غولدمان، ١٩٨١، ٧٠)، وانطلاقاً من ذلك، ترى الباحثة دراسة الهامش لا تهدف إلى



تثبيت صورة الضحية أو تمجيد المعاناة، إنَّما إلى فهم الكيفية التي يعيد بها الإنسان بناء ذاته داخل شروط غير منسجمة مع تطلعاته، فالهامش في الأدب قد يتحول إلى فضاء مقاومة رمزية، وإلى موقع لإنتاج وعي بديل يعيد تعريف العلاقة بين الفرد والمجتمع، وبذلك تتقاطع دراسة الهامش مع الأسئلة الكبرى حول الحرية، والهوية، والمسؤولية، وهي أسئلة تجعل من الأدب مجالاً أساسياً لفهم الإنسان في تعقيده، وبذلك، إن أهمية دراسة الهامش في الأدب تكمن في كونها تكشف الصراعات الإنسانية العميقة التي لا تظهر في خطاب المركز، تساعد في إعادة النظر في القيم الاجتماعية السائدة، من خلال اظهار محدوديتها وعجزها عن احتواء التجربة الإنسانية بكل تناقضاتها، فالهامش ليس نقيضاً للحياة الاجتماعية، إنَّما مراتها الأكثر صدقاً، ومن خلاله يعيد الأدب مساءلة ما يُقدّم بوصفه طبيعياً أو بديهياً. وبذلك ينطلق البحث من التمييز المنهجي بين الواقع الروائي بوصفه واقعا تمثيلاً متخيلاً يعاد بناؤه فنياً داخل النص، وبين الواقع الاجتماعي بوصفه مرجعاً خارجياً يستند إليه النص دون ان يطابقه بصورة مباشرة. وبناءً على ذلك فان قراءة الرواية لاتفهم باعتبارها نقلاً للواقع، بل باعتبارها اعادة تشكيل له وفق رؤية فنية وجمالية

ثالثاً: رواية "أنا أحياء" في السياق الأدبي العربي المعاصر

تُعدّ رواية "أنا أحياء" لليلي بعلبكي من النصوص المفصلية في مسار الرواية العربية المعاصرة، ولا سيما في ما يتعلق بتمثيل الذات الفردية والذات النسوية على وجه الخصوص، فقد جاءت هذه الرواية في مرحلة شهد فيها الأدب العربي تحولات جذرية على مستوى الموضوعات والبنى السردية، حيث انتقل الاهتمام من القضايا الجماعية الكبرى إلى التجربة الفردية، ومن السرد الخارجي للأحداث إلى الغوص في العالم الداخلي للشخصيات. وفي هذا السياق، تنتمي "أنا أحياء" إلى تيار روائي ركّز على الإنسان بوصفه كائنًا قلبيًا، متسائلًا، يعيش صراعًا مع ذاته ومع المجتمع في آن واحد، وقد ارتبط هذا التحول بما أشار إليه جورج لوكانش حول "أزمة المعنى" في الرواية الحديثة، حيث لم يعد البطل حاملاً لقيم جماعية مستقرة، إنَّما ذاتاً تبحث عن معنى وجودها داخل عالم متشظٍ (لوكانش، ١٩٨٧، ٩٥)، وتُجسّد رواية «أنا أحياء» هذا التحول بوضوح، إذ تُقدّم بطلًا لا تتنازل من أجل قضية خارجية، بل من أجل تثبيت ذاتها ووعيها وحريتها، مما يجعل الرواية أقرب إلى الرواية النفسية والوجودية منها إلى الرواية الاجتماعية التقليدية، وتحل العزلة موقعاً مركزياً في الرواية، الا أنها لا تُطرح بوصفها عزلة مكانية أو انسحاباً من المجتمع، إنَّما كعزلة داخلية نابعة من عدم الانسجام مع القيم السائدة،



فالبطلة تعيش وسط مجتمعتها، لكنها تشعر باغتراب عميق عن إنمات الحياة المفروضة عليها، وهو ما ينسجم مع ما وصفه إريك فروم بحالة الاغتراب التي يعيشها الإنسان الحديث داخل المجتمع لا خارجه، وتتحوّل هذه العزلة في الرواية إلى مساحة للتأمل وإعادة بناء الذات، لا إلى علامة ضعف أو هروب (باشلار، ١٩٨٤، ٧٦) أما التهميش في "أنا أحياناً"، فيُقدّم بوصفه تهميشاً رمزياً وثقافياً أكثر منه تهميشاً اقتصادياً أو اجتماعياً مباشراً، فالمرأة في الرواية ليست محرومة من الاستقرار المادي، لكنها مهذّدة بفقدان ذاتها إذا قبلت الامتثال الكامل للأدوار الاجتماعية الجاهزة، يلتقي النص مع تصور بيير بورديو للإقصاء الرمزي، حيث تُقصى الذات لا بسبب عجزها، إنّما بسبب رفضها الخضوع لمنظومة القيم المهيمنة (ريكور، ٢٠٠٥، ٧٦) وفي هذا الإطار، تساعد الرواية في إثراء الخطاب الأدبي النسوي العربي، لكنها تفعل ذلك بعيداً عن الشعارات المباشرة أو الخطاب الاحتجاجي الصريح، فالذات النسوية في "أنا أحياناً" لا تطالب بحقوقها من الخارج، إنّما تُعيد تأسيس مركزها من الداخل، عبر الوعي والعمل والاختيار، كما تتقاطع الرواية مع اتجاهات الرواية العربية المعاصرة التي جعلت من التجربة النفسية والوعي الذاتي محوراً للسرد، كما عند نجيب محفوظ في بعض أعماله المتأخرة، أو عند غسان كنفاني في تركيزه على الاغتراب الداخلي، وإن اختلف السياق والغاية، إلا أن خصوصية "أنا أحياناً" تكمن في جعل التجربة الأنثوية محوراً كلياً للرواية، من دون وساطة صوت ذكوري أو سلطة سردية خارجية (ماركوز، ١٩٧٤، ٢٣١)، وبذلك، ترى الباحثة إن رواية "أنا أحياناً" تنتمي إلى الأدب العربي المعاصر الذي أعاد الاعتبار للذات الفردية، وجعل من العزلة والتهميش أدوات لكشف الصراع الوجودي، لا مجرد مظاهر اجتماعية، وهي رواية تسهم في إعادة النظر في القيم الاجتماعية السائدة، من خلال مساءلة مفاهيم الاستقرار، والنجاح، والدور الاجتماعي للمرأة، وتطرح بديلاً يقوم على الوعي والاختيار والمسؤولية الذاتية، وبذلك، تكتسب الرواية أهميتها بوصفها نصاً أدبياً يعكس تحولات عميقة في وعي الإنسان العربي المعاصر، ويجعل من الذات النسوية مركزاً للتجربة السردية والفكرية.

المبحث الثاني: من الهامش إلى المركز - تمركز الذات النسوية في رواية "أنا أحياناً"



تشكل رواية "أنا أحياء" لليلي بعلبكي منعطفًا مهمًا في مسار السرد النسوي العربي، ليس لأنها تطرح قضية المرأة بوصفها كائنًا مقصيًا أو مهمشًا، بل لأنها تعيد صياغة موقع المرأة داخل البنية السردية والاجتماعية، من الهامش المفروض إلى المركز المختار، فالرواية لا تتشغل بتصوير المرأة ضحيةً لبنية اجتماعية ذكورية فقط، إنّما تقدّم نموذجًا لذات نسوية واعية، تهدف إلى بناء مركزها الخاص عبر الوعي والعمل والاختيار، حتى في ظل شروط اجتماعية تبدو مريحة ظاهريًا، وانطلاقًا من هذا التصور، يصبح مفهوم "الهامش" في الرواية مفهومًا إشكاليًا، لا يدل على الفقر أو الإقصاء المباشر، إنّما على حالة التوتر التي تعيشها الذات حين تُطالب بالتنازل عن وعيها مقابل القبول الاجتماعي، وبذلك، تتجه الرواية إلى قلب المعادلة التقليدية بين المركز والهامش، لتجعل من الذات النسوية محور التجربة السردية، ومن وعيها بذاتها نقطة ارتكاز للرؤية الفكرية للنص.

أولاً: الهامش بوصفه حالة مفروضة لا هوية ثابتة

في رواية "أنا أحياء" للروائية ليلي بعلبكي، يُقدّم الهامش بوصفه حالة مفروضة على الذات النسوية، ولكنه ليس ضعفًا خارجيًا ناتجًا عن الحرمان الاجتماعي أو الفقر، وإنّما بوصفه موقفًا وجوديًا وثقافيًا يفرضه المجتمع على كل من يحاول الخروج عن الأدوار الجاهزة والمفروضة، تنتمي البطلة إلى وسط اقتصادي ميسور، ومع ذلك فإن المجتمع يسعى لاحتوائها ضمن نمط محدد للنجاح والعيش، وهو ما يخلق نوعًا من التهميش الرمزي، لا يمكن ملاحظته بسهولة لكنه ملموس في وعيها الداخلي (السعداوي، ٢٠٠٠، ٥٤)، حيث يتضح رفض البطلة للانصياع للسلطة الرمزية أو الاقتصادية منذ البداية، حين تقول: "لن أعيش على مال غيبي، لن أسمح لأحد أن يقرر حياتي عني. أريد أن أعمل، أن أكون مسؤولة عن نفسي فقط" (بعلبكي، ٢٠١٠، ٢٧). هذا التصريح يعكس وعيها المبكر بأن الهامش في الرواية ليس مجرد ضعف أو عجز، إنّما موقف أخلاقي وإرادة ذاتية، فالبطلة تختار الحرية والمسؤولية على التبعية والراحة، وهو ما يتوافق مع ما يشير إليه عبد الله الغدامي في كتابه المرأة واللغة بأن الهامش غالبًا ما يكون نتيجة ضغوط ثقافية وليست نقصًا في الإمكانيات الفردية (الغدامي، ٢٠٠٦، ٤٨)، وليس الهامش في الرواية مجرد وضع خارجي، إنّما حالة نفسية ووجودية، كما يظهر حين تصف البطلة خوفها من فقدان ذاتها داخل حياة اجتماعية مريحة ظاهريًا لكنها لا تعبر عنها: "أخاف أن أفقد نفسي بين رغبات الآخرين، أن أخفي في حياة لا تعود إليّ" (بعلبكي، ٢٠١٠، ٤١). هذا الاقتباس يوضح أن التهميش يمكن أن يكون داخليًا، حيث ينتج عن تصادم القيم



الفردية مع توقعات المجتمع. هنا يتضح الدور النفسي للهامش، الذي يربط بين صراع الفرد مع الذات ومتطلبات الجماعة، وهو ما أكده إريك فروم عند تناول مفهوم الاغتراب الداخلي والبحث عن معنى الذات في المجتمع الحديث (فروم، ٢٠٠٥، ٦١)، وتتجاوز الرواية مجرد توضيح الهامش النفسي إلى إظهار تمركز الذات النسوية كوسيلة للتجاوز، فالبطلة تؤكد امتلاكها لقرارها الشخصي، قائلة: "أنا أقرّر حياتي، أنا أختار طرقتي وأحمل مسؤولية كل خطوة" (بعلبكي، ٢٠١٠، ٥٢) هذا الاقتباس ليس مجرد جملة قوية، إنّما مؤشر على أن الصوت السردي نفسه متمركز ويتيح للذات النسوية أن تصبح محورًا للمعنى، وهو ما يوضح أن تمركز الذات لا يتحقق من خلال الموقف الاجتماعي فقط، إنّما من خلال وعي حر ومسؤولية شخصية، حيث أشار سعيد يقطين إلى أن مركزية الصوت السردي في الرواية العربية الحديثة تعد أحد أدوات تمكين الذات وبناء فاعلية الشخصيات (يقطين، ١٩٩٧، ١١٢)، فضلا عن ذلك، تتحدى البطلة المعايير الاجتماعية التقليدية المتعلقة بالراحة والسعادة، معتبرة أن الحياة الواعية تتجاوز مجرد الاستقرار المادي، فهي تقول: "الراحة لا تساوي السعادة. أنا أحيأ حين أختار، لا حين أَرْضَى بما يقدمه الآخرون" (بعلبكي، ٢٠١٠، ٦١) يعكس هذا رفضها للمعايير المفروضة، ويؤكد أن الهامش في الرواية يتحول إلى مساحة وعي نقدي تمكّن الذات من تقييم قيم المجتمع واختيار ما يتوافق مع ذاتها، كما يدعم هذا التحليل ميشيل فوكو في فكرة أن السلطة غير المباشرة تفرض الطاعة عبر القيم الاجتماعية (فوكو، ١٩٩٤، ٣٥)، وببير بورديو الذي يوضح أن الإقصاء الرمزي يتخذ أشكالًا غير محسوسة لكنها فعالة في تحديد موقع الفرد في المجتمع (بورديو، ٢٠٠٩، ٢٣)، ويصبح الهامش في الرواية ليس موقعًا نهائيًا، إنّما مرحلة انتقالية تسمح للذات النسوية بالتحول من حالة التهميش الرمزي إلى تمركز الاختيار والفعل الواعي، فالهامش هنا، هوضاء للتفكير النقدي، ومساحة لإعادة النظر في العلاقة بين الذات والمجتمع، وهو ما يؤكد يوسف وغليسي عند تعريف الهامش في الخطاب السردي العربي كأداة للتحليل وإعادة بناء المعنى (غليسي، ٢٠١٣، ٢١)، من خلال هذا التوسع والتحليل، ترى الباحثة أن رواية "أنا أحيأ" تقدم تصوّرًا متقدمًا للهوامش، حيث تصبح مرحلة وعي أكثر من كونها إقصاءً، وتمثل نقطة الانطلاق نحو تمركز الذات النسوية، ما يجعل النص مثالًا حيًا على علاقة الفرد بالوعي، والمجتمع بالقيم، والحرية بالمسؤولية.

ثانيًا: الوعي بالذات أساس التحول من الهامش إلى المركز



إذا كان الهامش في رواية "أنا أحياء" يمثل الحالة التي تُدفع إليها الذات النسوية نتيجة رفضها الامتثال للقيم السائدة، فإن الوعي بالذات يشكل الأداة الأساسية التي تمكن هذه الذات من تجاوز الهامش وبناء مركزها الخاص، فالتحول في الرواية لا يتم عبر تغيير خارجي مفاجئ، ولا عبر صدام مباشر مع المجتمع، بل عبر مسار داخلي يتأسس على إدراك المرأة لذاتها، ولموقعها، ولمعنى حياتها خارج الأطر الجاهزة (سيمون، ١٩٨٣، ٨٧)، يتجلى هذا الوعي منذ اللحظات الأولى التي تبدأ فيها البطلة بمساءلة واقعها، حيث لا تكتفي بوصف ما تعيشه، إنّما تحاول فهمه وتأويله، فهي لا ترى حياتها مجرد سلسلة من الأحداث، إنّما تجربة يجب أن تكون منسجمة مع ذاتها، ولذلك تقول: "كنت أشعر أن حياتي ليست لي كما يجب، كأني أعيش ما يريده الآخرون لا ما أريده أنا" (بعلبكي، ٢٠١٠، ١٨٠)، يكشف هذا القول عن وعي مبكر بالفجوة بين الذات الحقيقية والذات الاجتماعية المفروضة، وهي فجوة تشكل أساس الشعور بالهامش، فالوعي هنا ليس معرفة نظرية، إنّما إحساس داخلي بالاختناق داخل حياة لا تعبر عن الذات، ويتعمق هذا الوعي حين تبدأ البطلة في ربط الحياة بالفعل الواعي، لا بمجرد الوجود البيولوجي أو الاجتماعي، فنقول: "أنا لا أريد أن أعيش فقط، أريد أن أشعر أنني أحياء" (بعلبكي، ٢٠١٠، ٢٧)، حمل هذا التصريح دلالة فلسفية واضحة، إذ تميّز البطلة بين العيش بوصفه حالة سلبية، والحياة بوصفها فعلاً واعياً قائماً على الاختيار، وهنا يتحول الوعي إلى معيار للحياة ذات المعنى، وهو ما يجعل الذات النسوية مركزاً للتجربة الإنسانية في الرواية، ويُلاحظ أن هذا الوعي لا ينمو في فراغ، إنّما يتشكل من خلال التجربة اليومية والاحتكاك بالقيم الاجتماعية، فكلما اقتربت البطلة من النماذج الجاهزة للحياة، ازداد شعورها بالاعتزاز، ما يدفعها إلى مراجعة هذه القيم ورفضها، ويتجلى ذلك في قولها: "كانوا يريدونني كما يشبههم، وأنا كنت أبحث عما يشبهني" (بعلبكي، ٢٠١٠، ٣٩)، تكشف هذه العبارة بوضوح عن الصراع بين الفرد والجماعة، حيث يصبح الوعي بالذات فعل مقاومة هادئة، لا يقوم على المواجهة الصريحة، بل على إعادة تعريف معنى الانتماء والنجاح، ومن خلال هذا المسار، يتضح أن الوعي بالذات في الرواية ليس حالة ثابتة، إنّما عملية تراكمية تتشكل عبر الشك والتأمل، فالذات النسوية لا تصل إلى مركزها دفعة واحدة، إنّما تبنيه خطوة خطوة، من خلال إدراكها لمسئوليتها عن اختياراتها. ويتجلى هذا التحول بوضوح عندما تقول البطلة: "أعرف أن الطريق الذي اخترته صعب، لكنه طريقي أنا" (بعلبكي، ٢٠١٠، ٥٥)، تحمل هذه الجملة دلالة مركزية، إذ تربط بين الوعي والاختيار وتحمل النتائج، وهو ما يحول الذات من كائن هامشي إلى فاعل مركزي في بناء حياته، ويكتسب هذا الوعي بعداً أعمق حين يفترن



بالمسؤولية الأخلاقية، فالحرية في الرواية لا تُقدّم بوصفها انفلاتاً من القيود، إنّما التزاماً بالذات، وهذا ما يجعل الوعي بالذات أساساً حقيقياً للمركز، لا مجرد وعي احتجاجي عابر، وبهذا المعنى، ينسجم النص مع ما يطرحه إريك فروم حول الإنسان الواعي الذي لا يهرب من حريته، إنّما يتحمل تبعاتها بوصفها شرطاً لتحقيق إنسانيته (فروم، ٢٠٠٥، ٦٣)، كما يتقاطع هذا التصور مع ما ذهب إليه ميشيل فوكو حول تشكّل الذات من خلال وعيها بالخطابات التي تحاصرهما، وقدرتها على إعادة إنتاج ذاتها خارج هذه الخطابات (فوكو، ١٩٩٤، ٨٧) فالمرأة في "أنا أحياناً" لا تتكر وجود السلطة الاجتماعية، لكنها تدركها، ومن ثمّ تعيد رسم علاقتها بها، وهو ما يمنحها موقعاً مركزياً داخل تجربتها الخاصة، وبذلك، يصبح الوعي بالذات في الرواية ليس مجرد مرحلة نفسية، إنّما قاعدة أساسية للانتقال من الهامش إلى المركز، فكلما ازدادت البطلة وعياً بذاتها، تضاعفت سلطة الهامش عليها، وازداد حضورها بوصفها ذاتاً فاعلة قادرة على اتخاذ القرار وبناء المعنى، ويغدو المركز هنا ليس موقعاً اجتماعياً جاهزاً، إنّما حالة وعي متقدمة، تتحقق حين تصبح الذات مرجعاً لذاتها، لا صدى لتوقعات الآخرين.

ثالثاً: العمل والاستقلال بوصفهما فعلاً وجودياً

تتجاوز قيمة العمل في رواية "أنا أحياناً" بعدها الاجتماعي أو الاقتصادي لتغدو فعلاً وجودياً يعبر عن سعي الذات النسوية إلى امتلاك حياتها ومعناها، فالعمل في هذا النص ليس أداة للعيش فقط، إنّما ممارسة واعية تؤكد الوجود، وتعيد للمرأة حقها في أن تكون فاعلة في العالم لا متلقية لما يُمنح لها، وبذلك، يرتبط الاستقلال ارتباطاً وثيقاً بفكرة الحياة ذات المعنى، التي لا تتحقق إلا عبر الاختيار الحر وتحمل المسؤولية، تدرك البطلة منذ بداية الرواية أن الامتيازات المادية التي تحيط بها لا تمنحها شعوراً حقيقياً بالحياة، إنّما قد تتحول إلى قيد خفي يسلبها ذاتها (ابراهيم، ١٩٩٧، ١٣٥)، لذلك تصر على العمل بوصفه الطريق الوحيد الذي يضمن لها الشعور بالكرامة والوجود الحقيقي، فنقول: "كنت أرفض أن أعيش معتمدة على غيري، لأنني كنت أشعر أن ذلك يسلبني حقي في أن أكون نفسي" (بعلبكي، ١٩٨٤، ٥٦)، يحمل هذا القول دلالة وجودية واضحة، إذ تربط البطلة بين الاعتماد على الآخر وفقدان الذات، ما يجعل العمل شرطاً أساسياً لاستعادة الشعور بالكينونة، ولا يُقدّم العمل في الرواية بوصفه ضرورة قسرية، إنّما خياراً واعياً، حتى وإن كان شاقاً، فالذات النسوية لا تبحث عن الراحة السهلة، إنّما عن حياة تشعر أنها نابعة من داخلها، ويتجلى ذلك في



قولها: "التعب الذي أختره أهون عليّ من راحة لا تشبهني" (بعلبكي، ٢٠١٠، ٤٤)، تكشف هذه العبارة عن قلب المعادلة التقليدية التي تساوي بين الراحة والسعادة، حيث يصبح التعب جزءاً من الحرية والعمل فعلاً يؤكد حضور الذات في العالم، ومن خلال هذا التصور، يتحول العمل إلى مساحة لإعادة بناء العلاقة بين الذات والوجود، فالمرأة التي تعمل في "أنا أحياناً" لا تسعى فقط إلى إثبات قدرتها، إنّما إلى تأكيد حقها في اتخاذ القرار وفي تحمّل نتائجه، ولهذا تقول البطلة: "أريد أن أتحمل نتيجة اختياري، لا أن أعيش محمية من الحياة" (بعلبكي، ٢٠١٠، ٥٧)، يشير هذا القول إلى وعي عميق بأن الوجود الحقيقي لا يتحقق في الحماية المفرطة، إنّما في المواجهة، وفي القدرة على الخطأ والتعلّم، وهو ما يمنح الذات معنى وحضوراً، ويكتسب هذا البعد الوجودي للعمل أهميته حين نلاحظ أن البطلة لا تنتظر إلى الاستقلال بوصفه تمرّداً على المجتمع، إنّما بوصفه انسجاماً مع ذاتها، فالعمل لا يجعلها في صراع مباشر مع الآخرين، إنّما يمنحها مسافة نقدية تسمح لها بأن تعيش وفق قناعاتها الخاصة، وبهذا المعنى، يتحول الاستقلال إلى فعل وعي، لا إلى قطيعة، وإلى بناء للذات من الداخل لا إلى مواجهة خارجية (العيد، ١٩٨٨، ٧٦)، ويتقاطع هذا التصور مع ما تطرحه الفلسفات الوجودية حول الارتباط بين العمل والمعنى، حيث يُنظر إلى الفعل الواعي بوصفه أساس تحقق الذات، فالإنسان، وفق هذا المنظور، لا يُعرّف بما يملك، إنّما بما يفعل وبالطريقة التي يختار بها أفعاله، وبذلك، تصبح البطلة في "أنا أحياناً" نموذجاً لذات نسوية تعيد تعريف وجودها من خلال العمل، لا باعتباره واجباً اجتماعياً، إنّما باعتباره فعلاً يؤكد الحياة (برادة، ١٩٩٦، ٨٥)، وبذلك، ترى الباحثة إن العمل والاستقلال في الرواية يشكّلان آلية مركزية للانتقال من الهامش إلى المركز، فالمركز لا يُمنح للبطلة من الخارج، ولا يتحقق عبر الاعتراف الاجتماعي، إنّما يُبنى من خلال الممارسة اليومية والاختيار الحر، وبذلك، يصبح العمل فعلاً وجودياً بامتياز، لأنه يمنح الذات القدرة على أن تقول "أنا أحياناً" لا بوصفها شعاراً لغوياً، بل بوصفها تجربة معيشة قائمة على الوعي، والمسؤولية، والحرية.

رابعاً: الصوت السردي وتمركز الخطاب بوصفه تنويجاً لتحقيق الذات النسوية

لا يكتمل مشروع تمركز الذات النسوية في رواية "أنا أحياناً" عند حدود الوعي أو العمل أو الاستقلال، إنّما يتجسّد بصورة أعمق في بنية السرد ذاتها، حيث يصبح الصوت النسوي هو المركز الذي تُبنى



حوله الرؤية والتجربة والمعنى، فالرواية لا تكفي بتقديم امرأة واعية ومستقلة، إنما تمنحها سلطة القول، وتجعل خطابها الذاتي هو الإطار الذي تُروى من خلاله الأحداث، وهو ما يمنح النص بعداً دلاليًا يتجاوز الحكاية إلى إعادة تشكيل العلاقة بين المرأة واللغة، تتخذ الرواية من ضمير المتكلم أداة مركزية في بناء السرد، وهو اختيار دلالي لا يمكن فصله عن مشروع تمركز الذات (المرنيسي، ١٩٩٢، ٨٧)، فالبطلة لا تُروى بوصفها موضوعاً للنظر أو الوصف من الخارج، إنما تتكلم عن نفسها، وتعيد تأويل تجربتها بذاتها، قائلة: "أنا أتكلم لأن الصمت لم يعد يشبهني" (بعلبكي، ٢٠١٠، ٨٤)، يحمل هذا التصريح دلالة مزدوجة؛ فهو من جهة إعلان عن امتلاك الصوت، ومن جهة أخرى رفض لموقع الصمت الذي ارتبط تاريخياً بتهميش المرأة داخل الخطاب الاجتماعي والثقافي، ويُلاحظ أن الصوت السردية في الرواية لا يقتصر على نقل الأحداث، إنما يقوم بوظيفة تأملية تحليلية، إذ تعيد البطلة النظر في تجربتها، وتمنحها معنى، وتربطها بذاتها، فهي لا تكفي بأن تعيش، إنما تفسر عيشها، وتمنحه بعداً وجودياً، كما يتضح في قولها: "أشعر أنني حين أروي ما أعيشه، أفهمه أكثر، وأفهم نفسي من خلاله" (بعلبكي، ٢٠١٠، ٤٨)، يدل هذا القول على أن السرد نفسه يصبح فعل وعي، وأن الكتابة أو الكلام ليسا وسيلة للتعبير فقط، بل أداة لبناء الذات وإعادة تمركزها، ومن خلال هذا الصوت، تُعاد صياغة موقع المرأة داخل النص؛ فهي لم تعد شخصية ثانوية أو هامشية في خطاب يهيمن عليه الآخر، إنما أصبحت مركز الرؤية ومنبع الدلالة، ويتحقق هذا التمركز حين يصبح العالم الروائي مرئياً من زاوية الذات النسوية وحدها، وتغدو التجربة الشخصية مرآة لأسئلة إنسانية أوسع تتعلق بالحرية والمعنى والاختيار (ابراهيم، ١٩٩٧، ٧٦)، كما يكشف السرد الذاتي عن تحوّل عميق في علاقة المرأة باللغة، إذ لم تعد اللغة أداة تُفرض عليها، إنما أداة تمتلكها وتعيد توجيهها، فاللغة في "أنا أحياناً" ليست محايدة، إنما منازعة للذات المتكلمة، وتشارك في بناء مركزيتها، وهذا ما يتجلى في النبذة الواثقة التي تعتمدها البطلة حين تقول: "أكتب حياتي كما أريد أن تكون، لا كما يريدونها الآخرون" (بعلبكي، ٢٠١٠، ٦٣)، يعكس هذا القول تحوّل الكتابة إلى فعل سيادي، يجعل من الخطاب مساحة لتمكين الذات، لا مجرد انعكاس للواقع، ومن منظور نقدي، يتقاطع هذا البناء السردية مع ما تذهب إليه يمني العيد من أن السرد الذاتي في الرواية الحديثة يمنح الشخصية سلطة رمزية داخل النص، ويحوّلها من موضوع للحكي إلى ذات منتجة للمعنى (العيد، ١٩٨٨، ٦٩)، كما ينسجم مع طرح محمد برادة الذي يرى أن تمركز الصوت السردية هو أحد مظاهر تحوّل الرواية العربية إلى فضاء لتمثيل الذات الفردية الواعية، وبذلك، يصبح الصوت السردية في رواية "أنا



أحياناً تتويجاً لمسار التحول من الهامش إلى المركز، حيث لا تكتفي البطلة بأن تعيش تجربتها، إنّما تمتلك حق روايتها وتأويلها، فالتمركز هنا لا يتحقق فقط في مستوى الفعل أو القرار، إنّما في مستوى الخطاب، حيث تصبح الذات النسوية مرجعاً لذاتها، ومركزاً للمعنى داخل النص، وبذلك (برادة، ١٩٩٦، ٥٦)، ترى الباحثة إن الرواية تؤسس لتمركز مزدوج: تمركز وجودي يتحقق عبر الوعي والعمل، وتمركز سردي يتحقق عبر امتلاك الصوت والخطاب، وبهذا التداخل بين الحياة والسرد، تتحول عبارة "أنا أحياناً" من عنوان إلى إعلان وجودي وسردي في آن واحد.

المبحث الثالث: تجليات التحول من الهامش إلى المركز في البنية السردية لرواية «أنا أحياناً»

يمثل هذا المبحث المستوى التطبيقي للدراسة، إذ ينتقل من التأطير النظري إلى قراءة تحليلية دقيقة للنص الروائي، بغية الكشف عن الآليات السردية والفكرية التي تحقق من خلالها تمركز الذات النسوية، ولا يُنظر إلى هذا التحول بوصفه حدثاً فجائياً، إنّما باعتباره مساراً تدريجياً يتشكل عبر اللغة، والوعي، والعلاقة بالآخر، والعمل، والصوت السردي، ويمكن أيضاً ذلك من خلال.

أولاً: العزلة بوصفها لحظة وعي تأسيسية في تشكّل الذات

تنهض رواية «أنا أحياناً» ليلى بعلبكي على بنية داخلية تبدأ من منطقة شعورية كثيفة تتمثل في العزلة، إلا أن هذه العزلة لا تُطرح بوصفها حالة انكسار نفسي، إنّما بوصفها لحظة إدراك أولى لموقع الذات داخل شبكة من العلاقات التي لا تعبّر عنها تعبيراً كاملاً، فالبطلة، منذ الصفحات الأولى، تُفصح عن شعور عميق بالانفصال الداخلي حين تقول: "كنت أعيش بينهم، لكنني لا أنتمي تماماً إلى ما يريدونه لي" (بعلبكي، ٢٠١٠، ١٣) إن هذا الاعتراف لا يُعلن تمرّداً مباشراً، إنّما يشي بولادة سؤال وجودي صامت، فالعزلة في هذا السياق ليست انسحاباً جسدياً، إنّما مسافة رمزية تفصل بين الذات والدور المفروض عليها، فهي ليست مهمّشة اقتصادياً ولا اجتماعياً، إذ تعيش في ظل استقرار مادي واضح، إلا أن هذا الاستقرار لا يمنحها شعوراً بالتحقق، فنقول في موضع آخر: "كان كل شيء منظماً حولي، إلا حياتي أنا" (بعلبكي، ٢٠١٠، ٣١)، هذه المفارقة تكشف أن الإشكال ليس في الواقع الخارجي، إنّما في موضع الذات داخله، ومن منظور نقدي، يمكن قراءة هذه الحالة في ضوء ما طرحه حول تحوّل الرواية العربية الحديثة إلى "رواية ذات" حيث تصبح التجربة



الداخلية مركز السرد لا هامشه، فالعزلة هنا تمثل نقطة تمركز مبكرة، لأنها تُعيد ترتيب العلاقة بين الداخل والخارج، وتمنح الذات أولوية في التأويل (عصفور، ١٩٩٩، ٢٧)، وتعمق هذه الدلالة عندما تصرّح البطلة: "كنت أحتاج أن أبقى وحدي كي أفهم لماذا لا أشبههم" (بعلبكي، ٢٠١٠، ٣١)، فالوحدة تتحول إلى شرط للفهم، لا إلى عرض للضعف، إنها لحظة مراجعة تتفكك فيها المسلمات، ويُعاد فيها النظر في المعاني السائدة للنجاح والرضا والاستقرار، هذا التحول من العزلة بوصفها ضيقاً إلى العزلة بوصفها وعياً يتقاطع مع ما تشير إليه فاطمة المرنيسي في حديثها عن "إعادة امتلاك المرأة لخطابها الذاتي" حيث يصبح الانسحاب المؤقت من النسق الاجتماعي خطوة أولى نحو إعادة تعريف الذات، فالبطلة لا تهرب من المجتمع، إنّما تتسحب رمزياً لفهمه وتفهم موقعها فيه (المرنيسي، ١٩٩٧، ٨٤)، ومن اللافت أن النص لا يقدم العزلة بوصفها شعوراً عابراً، إنّما كمسار تراكمي يتصاعد تدريجياً، ففي مقطع لاحق تقول: "لم أعد أخاف صمتي، بل صرت أخاف أن أضيعه" (بعلبكي، ٢٠١٠، ٤٤) إن هذه العبارة تكشف أن الصمت نفسه يتحول إلى ملكية، إلى مساحة خاصة لا تُنتزع، وهنا تبدأ ملامح المركز في التشكل؛ فالمركز ليس مكاناً جغرافياً، إنّما قدرة على امتلاك الصوت، ويؤكد هذا المسار ما ذهب إليه بعض الباحثين حين اعتبروا أن التحول في الرواية المعاصرة يتحقق عبر "تحرير الوعي قبل تحرير الواقع" (فضل، ١٩٩٢، ١١٢) فالبطلة في "أنا أحيا" لا تتغير شروط حياتها مباشرة، لكنها تتغير نظرتها إليها أولاً، وهذا التغيير هو الشرط الضروري لأي فعل لاحق، كما يمكن فهم العزلة بوصفها تفكيكاً للهوية الجاهزة. فالبيت الذي يفترض أن يكون فضاء أمان يتحول في وعي البطلة إلى مساحة مساءلة. تقول: "كنت أشعر أنني أؤدي دوراً مكتوباً لي منذ زمن" (بعلبكي، ٢٠١٠، ٥٨) هذا الإحساس بالأداء يكشف وعياً بأن الهوية الاجتماعية ليست طبيعية أو حتمية، إنّما مُشكّلة ثقافياً، وهنا تقترب الرواية من التصور الذي تطرحه سيمون دي بوفوار في قولها إن المرأة لا تولد امرأة إنّما تُصبح كذلك، أي أن الهوية نتيجة تشكيل اجتماعي لا قدر بيولوجي، إن العزلة، في ضوء ذلك، تمثل لحظة انفصال عن هذا "التشكيل" الجاهز، تمهيداً لإعادة البناء، فهي ليست هروباً من العالم، إنّما إعادة تموضع داخله (بوفوار، ١٩٨٦، ١٧) وهكذا ترى الباحثة أن العزلة في "أنا أحيا" ليست نهاية مسار، إنّما بدايته؛ إنها الشرارة الهادئة التي تُطلق سلسلة من التحولات اللاحقة، وتمنح الذات النسوية فرصة إعادة تعريف نفسها خارج القوالب المفروضة.

ثانياً: الوعي بالصراع الاجتماعي وإعادة مساءلة القيم السائدة



لا يتشكّل انتقال البطلة في رواية "أنا أحياء" من الهامش إلى المركز في فراغ نفسي معزول، إنّما يتبلور تدريجياً عبر وعي متنامٍ بالصراع القائم بينها وبين منظومة القيم الاجتماعية التي تحيط بها، إلا أن هذا الصراع لا يُقدّم في الرواية بوصفه مواجهة مباشرة أو تمرّداً صاخباً، وإنّما يأتي في صيغة مسائلة هادئة، تتسلل إلى بنية التفكير قبل أن تظهر في السلوك، تدرك البطلة أن المجتمع لا يرفضها صراحة، لكنه يحدد لها مسبقاً صورة المرأة المقبولة، والدور الذي ينبغي أن تؤديه دون نقاش، ويتجلى هذا الإدراك في قولها: "كانوا يريدونني راضية، لا أكثر، ولم يسألني أحد عما أريده أنا" (بعلبكي، ٢٠١٠، ٢٧) تكشف هذه العبارة عن جوهر الصراع؛ فالإشكال لا يكمن في القمع الظاهر، إنّما في الإلغاء الصامت للرجبة الفردية، إن الرضا هنا قيمة اجتماعية تُفرض على المرأة بوصفها بديلاً عن الحرية، ويمثّل هذا الوعي بداية تفكك العلاقة بين الذات والنسق الاجتماعي، فالمرأة في الرواية لا تُقصى إلى الهامش بسبب فشلها في أداء دورها، بل لأنها بدأت تشكك في مشروعية هذا الدور ذاته، تقول البطلة: "كنت أشعر أن حياتي تُدار نيابة عني، وكأن وجودي تفصيل ثانوي" (بعلبكي، ٢٠١٠، ٢١) هذا الإحساس بالثانوية لا يُنتج استسلاماً، إنّما يولد رغبة في إعادة التموضع، ومن منظور نقدي، يمكن فهم هذا المسار في ضوء ما يطرحه حول علاقة السرد بالوعي، إذ يرى أن الرواية الحديثة تكشف الصراع الاجتماعي عبر تفكيك البنى الذهنية لا عبر الأحداث الصدامية، وهذا ما يتحقق في "أنا أحياء" حيث يُنقل الصراع من مستوى الفعل الخارجي إلى مستوى الإدراك الداخلي (يقطين، ١٩٩٧، ٦٤)، وتعمق مسائلة القيم حين تربط البطلة بين صورة المرأة المثالية كما يريدونها المجتمع وبين تهميش ذاتها الحقيقية، فهي تقول: "كلما حاولت أن أكون كما يريدون، شعرت أنني أختفي أكثر" (بعلبكي، ٢٠٢١، ٣٥) تكشف هذه العبارة عن مفارقة جوهرية؛ فالامتثال لا يؤدي إلى الاعتراف، إنّما إلى المحو، ومن هنا يبدأ التحول من محاولة الانسجام إلى الرغبة في الاختلاف، ويتجلى هذا الوعي النقدي أيضاً في نظرتها إلى مفهوم الأمومة، الذي لا ترفضه في ذاته، لكنها ترفض تحويله إلى هوية كاملة تُلغي باقي الأبعاد، تقول البطلة: "أحببت ابني، لكنني لم أرد أن أذوب فيه" (بعلبكي، ٢٠١٠، ٤٨) إن هذا التصريح يخلخل إحدى أكثر القيم الاجتماعية رسوخاً، إذ يفصل بين العاطفة والذوبان، وبين العطاء وإلغاء الذات، (فياض، ٢٠٠٣، ١٠٢) ويذهب هذا التصور في اتجاه ما طرحه في أن الخطاب النسوي العربي لا يناهض القيم بقدر ما يعيد تأويلها من منظور الذات، فالبطلة لا تهاجم الأسرة أو الأمومة، لكنها تعيد تعريف حدودها بما يحفظ توازن الذات، كما تكشف الرواية أن الصراع الاجتماعي لا يُختزل في علاقة



المرأة بالرجل فقط، إنَّما يمتد إلى علاقة المرأة بالنساء الأخريات حين يتبَّين القيم ذاتها، تقول البطلة: "كانت النساء أكثر قسوة حين يطلبن مني أن أكون مثلهن" (بعلبكي، ٢٠١٠، ٦١) يشير هذا القول إلى أن التهميش قد يُعاد إنتاجه داخل الجماعة نفسها، وأن المركز لا يُنتزع فقط من سلطة ذكورية، إنَّما من منظومة ثقافية شاملة، ويتقاطع هذا المعنى مع ما يتم طرحه حول "العنف الرمزي" حيث تُمارس الهيمنة عبر القبول الاجتماعي لا عبر الإكراه المباشر (بورديو، ٢٠٠٩، ١٩)، فالمرأة في "أنا أحياء" تتعرض لعنف ناعم يتمثل في التوقعات والتمثيلات، لا في المنع الصريح، ومع تصاعد هذا الوعي، تنتقل البطلة من موقع المتلقي إلى موقع الفاعل، فنقول في لحظة دالة: "لم أعد أقبل أن تُقاس حياتي بما يرضي الآخرين" (بعلبكي، ٢٠١٠، ٨٩) تمثل هذه العبارة إعلانًا داخليًا عن بداية التحول؛ إذ يصبح معيار القيمة ذاتيًا لا اجتماعيًا، وهنا تبدأ الذات في استعادة مركزها الرمزي، ترى الباحثة إن الصراع الاجتماعي في الرواية لا ينتهي بحسم خارجي، إنَّما ببلوغ وعي نقدي يجعل البطلة قادرة على العيش داخل المجتمع دون أن تذوب فيه، وبهذا المعنى، يتحقق الانتقال من الهامش إلى المركز لا عبر القطيعة، إنَّما عبر إعادة تعريف العلاقة مع القيم السائدة، وتفكيك سلطتها الرمزية من الداخل

الخاتمة

سعت الدراسة إلى مقارنة التحول من الهامش إلى المركز في رواية "أنا أحياء" لـ ليلي بعلبكي، من خلال قراءة تحليلية تستند إلى تفكيك البنية السردية، واستنطاق تمثيلات الوعي النسوي، ورصد آليات إعادة بناء الذات داخل النص الروائي، حيث انطلقت الدراسة من فرضية مفادها أن الرواية لا تقدم مجرد تجربة فردية لامرأة تبحث عن ذاتها، إنَّما تؤسس لخطاب سردي يعيد مساءلة موقع المرأة في المجتمع، ويكشف عن إمكانية انتقالها من موقع التهميش الرمزي إلى موقع الفاعلية والتمركز، أظهر المبحث الأول، في إطاره النظري، أن مفهوم "الهامش" في السياق السردية لا يُختزل في الإقصاء الاجتماعي الظاهر، إنَّما يتجسد في البنى الرمزية والثقافية التي تُعيد إنتاج الأدوار التقليدية وتطبعها بطابع البدهاءة، كما بيَّن أن "المركز" لا يُفهم بوصفه موقعًا سلطويًا بقدر ما هو قدرة على امتلاك الصوت والوعي والفعل، ومن خلال استدعاء مفاهيم النقد السردية والدراسات الثقافية، أمكن تأصيل القراءة ضمن أفق نظري يربط بين البنية الخطابية والتحول الاجتماعي، أما المبحث الثاني، فقد نقل الدراسة إلى مستوى التطبيق النصي، حيث تم تحليل مسار البطلة بوصفه مسارًا تدريجيًا للتحول، يبدأ



من عزلة واعية تتشكل داخل فضاء أسري واجتماعي مستقر ظاهرياً، لكنه لا يمنح الذات شعوراً بالتحقق، وقد كشفت القراءة أن العزلة لم تكن انكساراً، إنّما لحظة تأسيس للوعي، ومنها انطلقت عملية مساءلة القيم السائدة، وإعادة تعريف مفاهيم الأمومة، والعمل، والاستقلال، بعيداً عن القوالب الجاهزة، وتبين من خلال التحليل أن التحول لم يتحقق عبر صدام مباشر مع المجتمع، إنّما عبر تفكيك داخلي هادئ للنسق القيمي، حيث انتقلت البطلة من الامتثال الصامت إلى اتخاذ موقف نقدي، ثم إلى ممارسة فعل يرسخ استقلالها، وقد مثل العمل، في هذا السياق، لحظة مركزية في إعادة إنتاج الذات، إذ تحوّل من وظيفة اقتصادية إلى فعل وجودي يمنح الحياة معناها، ويمنح الذات شعوراً بالجدوى، كما أظهرت الدراسة أن البنية السردية نفسها لعبت دوراً حاسماً في تكريس تمركز الذات، إذ إن اعتماد ضمير المتكلم لم يكن خياراً تقنياً فحسب، إنّما كان استراتيجية دلالية تمنح البطلة سلطة التأويل، فالسرد الذاتي حول التجربة الفردية إلى خطاب واعٍ، وأعاد تشكيل العلاقة بين المرأة واللغة، بحيث أصبحت الذات هي المرجع الأول لمعنى وجودها، ويمكن القول إن الرواية لا تطرح تحرراً رومانسياً أو قطيعة مطلقة مع المجتمع، إنّما تقدم نموذجاً لتحول داخلي متدرج، يجعل من الوعي شرطاً للفعل، ومن الفعل شرطاً للمركز، فالهامش في "أنا أحياء" ليس قدراً نهائياً، إنّما حالة قابلة للتجاوز متى امتلكت الذات قدرتها على التفكير والاختيار وإعادة تعريف موقعها، وتكمن أهمية هذه الدراسة في أنها أبرزت أن التحول النسوي في الرواية العربية لا يتحقق دائماً عبر خطاب صدامي مباشر، إنّما قد يتجلى في مسارات دقيقة تتسلل عبر اللغة، والبناء السردية، وتحولات الوعي، كما أكدت أن تجربة البطلة، رغم طابعها الفردي، تحمل أفقاً رمزياً أوسع، إذ تعكس تحولات اجتماعية وثقافية شهدتها المجتمع العربي في مرحلة تاريخية حساسة، حيث بدأت المرأة تعيد مساءلة موقعها داخل البنية التقليدية، وفي ضوء ما تقدم، يمكن التأكيد أن رواية "أنا أحياء" تمثل لحظة مبكرة في تشكل السرد النسوي العربي، حيث يتداخل الوجودي بالاجتماعي، ويتحول الخاص إلى دلالة عامة، لقد نجحت الرواية في تقديم نموذج لذات نسوية لا تكنفي برفض الهامش، إنّما تعمل على إعادة إنتاج مركزها من الداخل، عبر الوعي والعمل وامتلاك الخطاب، وتفتح هذه النتائج آفاقاً بحثية لاحقة يمكن أن تتناول المقارنة بين هذه الرواية ونصوص نسوية عربية أخرى، أو دراسة تطور تمثيل الذات النسوية في مراحل زمنية مختلفة، أو استكشاف العلاقة بين التحول السردية والتحول الاجتماعي في الأدب العربي المعاصر، وبذلك تكون هذه الدراسة قد حاولت الإسهام في قراءة نقدية



متأنية لنص روائي مفصلي، مؤكدة أن الانتقال من الهامش إلى المركز ليس مجرد حركة مكانية رمزية، إنّما هو فعل معرفي ووجودي يعيد تعريف الذات داخل النص وخارجه.

المصادر والمراجع

- ١- ابراهيم. عبد الله. (١٩٩٧). السردية العربية: بحث في البنية والدلالة. بيروت: المركز الثقافي العربي.
- ٢- ادوارد. سعيد. (١٩٩٧). الثقافة والامبريالية. دار الآداب.
- ٣- باختين. ميخائيل. (١٩٩٧). قضايا شعرية دستوفسكي. وزارة الثقافة.
- ٤- باشلار. غاستون. (١٩٨٤). جماليات المكان. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر،
- ٥- برادة. محمد. (١٩٩٦). اسئلة الرواية. الرباط: دار الفنك.
- ٦- بعلبكي. ليلي. (١٩٨٤). انا احيا. بيروت: دار الآداب.
- ٧- بورديو. بيير. (٢٠١٠). التمييز: نقد اجتماعي لحكم الذوق. المنظمة العربية للترجمة.
- ٨- داريدا. جاك. (١٩٩٨). في علم الكتابة. دار توفال.
- ٩- دي بوفوار. سيمون. (١٩٨٦). الجنس الاخر. بيروت: دار الآداب.
- ١٠- ريكور. بول. (٢٠٠٥). الذات عينها كآخر. بيروت: المنظمة العربية للترجمة.
- ١١- سيمون. دي بوفوار. (١٩٨٣). الجنس الاخر. بيروت: دار الطليعة.
- ١٢- عصفور. جابر. (١٩٩٩). زمن الرواية. القاهرة: دار الشروق.
- ١٣- الغداني. عبد الله. (١٩٩٦). المرأة واللغة. بيروت: المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.
- ١٤- غولدمان. لوسيان. (١٩٨١). من اجل سوسيولوجيا الرواية. بيروت: دار الطليعة.
- ١٥- فروم. اريك. (٢٠٠٥). الاغتراب. الكويت: عالم المعرفة.
- ١٦- فروم. اريك. (٢٠٠٦). الانسان المغترب. دار الحوار،
- ١٧- فضل. صلاح. (١٩٩٢). بلاغة الخطاب وعلم النص. القاهرة: دار الشروق.
- ١٨- فياض. منى. (٢٠٠٣). المرأة والتمثيل الثقافي. بيروت: دار النهار.



١٩- لوكانش. جورج (١٩٨٧). نظرية الرواية. بيروت: دار التنوير.

٢٠- المرنيسي. فاطمة. (١٩٩٧). ما وراء الحجاب. بيروت: المركز الثقافي العربي.

٢١- يقطين. سعيد. (١٩٩٧) تحليل الخطاب الروائي. بيروت: المركز الثقافي العربي.

٢٢- فوكو. ميشيل. (١٩٩٠). المراقبة والمعاقبة. بيروت: مركز الإنماء القومي.

٢٣- السعداوي. نوال (٢٠٠٠). المرأة والصراع النفسي. بيروت: دار الساقي.

٢٤- ماركوز. هيرت. (١٩٧٤) الانسان ذو البعد الواحد. بيروت: دار الادب.

٢٥- بابا. هومي. (٢٠١٣). مواقع الثقافة. المنظمة العربية للترجم.

٢٦- العيد. يمني (١٩٨٨). الكتابة وتحويل الواقع. بيروت: دار الآداب.

٢٧- وغليسي. يوسف (٢٠١٣). الهامش في الخطاب السردي العربي. الجزائر: دار الاختلاف.

1. Al-Eid, Yumna (1988) Writing and Transforming Reality. Beirut: Dar Al-Adab.
2. Al-Ghadha'i, Abdullah (1996). Woman and Language. Beirut: Arab Cultural Center, Casablanca.
3. Al-Marwisi, Fatima (1997). Beyond the Veil. Beirut: Arab Cultural Center.
4. Asfour, Jaber (1999). The Time of the Novel. Cairo: Dar Al-Shorouk.
5. Baba Homi (2013) Sites of Culture, Arab Organization for Translation.
6. Bakhtin Mikhail (1997) Poetic Issues of Dostoevsky. Ministry of Culture.
7. Bere Bourdieu (2010). Discrimination: A Social Dimension of the Judgment of Taste. Arab Organization for Translation.
8. Darida Galde (1998) On Grammar. Publisher Bongal.
9. Edward Said (1997) Culture and Imperialism. Dar Al-Adab.
10. El Saadawi, Nawal (2000). Woman and Psychological Conflict. Beirut: Dar Al Saqi
11. Fasl, Salah (1992). The Rhetoric of Discourse and Text Linguistics. Cairo: Dar .Shorouk-Al



12. Fayyad, Muna (2003). Woman and Cultural Representation. Beirut: Dar Al-Nahar.
13. Foucault, Michel (1990). Discipline and Punish. Beirut: National Development Center.
14. Fromm, Eric (2005). Alienation. Kuwait: Alam Al-Ma'rifah.
15. Fromm, Eric (2006). The Alienated Man. Dar Al-Hiwar.
16. Gaston Bachelard (1984) The Poetics of Space. Beirut: University Foundation for Studies and Publishing.
17. Goldmann, Lucien (1981). Towards a Sociology of the Novel. Beirut: Dar Al-Tali'a.
18. Ibrahim Abdullah. (1997) The Arabic Narrative: A Study in Structure and Meaning. Beirut: Arab Cultural Center.
19. Laila Ta'liqi (1984) I, We. Beirut: Dar Al-Adab.
20. Lukács, George (1987). Theory of the Novel. Beirut: Dar Al Tanweer
21. Marcour, Herbert (1974). One-Dimensional Man. Beirut: Dar Al Adab
22. Mohamed Bezadeh (1996) Questions of the Novel. Rabat: Dar Al-Fanq.
23. Paul Ricoeur (2005) The Same Melt as Another Peron. Arab Organization for Translation.
24. Simone de Beauvoir (1983) The Second Sex. Beirut: Dar al-Tali'a
25. Simone de Beauvoir (1986) The Second Sex. Beirut: Dar Al-Adab
26. Waghlisi, Youssef (2013) The Whisperer in Arabic Narrative Discourse. Algeria: Dar Al-Ikhtilaf.
27. Yaqtin, Said (1997). Analysis of Narrative Discourse. Beirut: Arab Cultural Center.